

طرائف من العصر المملوكي :

النقد الأدبي

للأستاذ محمود رزق سليم

النقد الأدبي كما نفهم في العصر الحديث ، هو النظر في النتائج الأدبية لأمة أو فرد ، لتري مبلغ دلالاته على الصدق ومقدار نطقه بالحق . نقله على وجوهه المتعددة تحرياً لظاهر الحسن فيه ، وتلصقاً لمواضع النقص منه ، جاهدين في إبراز حسنه أو نقصه ، مع الإشارة إلى الحسن لم كان حسناً ، وإلى النقص لم كان نقصاً . ومعنى ذلك تحليل الأدب وتعليقه لفظاً ونظماً وفكرة ، وتوضيح المؤثرات التي تأثر بها ، تنافية أو جغرافية أو تاريخية أو اجتماعية أو شخصية أو نحوها ، مع توضيح آثارها فيه . ثم بيان مدى تأثير هذا الأدب بدوره في فرد آخر أو جماعة أخرى ، باعتباره عاملاً جديداً من العوامل الحيوية المؤثرة في حياتها . ثم موازنة هذا الأدب بتغيره ومعرفة مدى الفوارق بينهما ، إبرازاً لقوة أحدهما أو ضعفه وسوره أو ضعفه ، ومدته أو مينه ، وتأثره بتغيره أو عدم تأثره . والموازنة بذلك تعين على تشخيص الأدب وإبراز عناصره وإيضاح

بميزاته وخصائصه .

والناقد الكامل يحتاج - لكأله - إلى سمة من السلم وإحاطته بالأدب ، ودراسة اجتماعية حاذقة وفاسفة نفسية عميقة . هذا إلى ذوق فني سليم ، وإطلاع على ما كتبه أرباب النقد البياني ورجال البلاغة للاستئناس به والاسترشاد بقواعده ، حتى يكون بذلك كامل المنة واضح الحججة ، جامعاً لأسول النقد الصحيح من ذوق ومعرفة .

مثل هذا الناقد إذا جلس للحكم على الأدب ترجيح أن يكون حكمه عادلاً وناقماً .

ونقول - ثانياً ، لأن النفع الجديد الذي يتشتمته حكمه هو مزية النقد الكبرى ، ومزية الناقد ، وأبسط ما توصف به هذه المزية أنها تبصير حق بالأدب المفقود ، يضاعف أثره ، وتمهيد جميل للأدب الجديد يذلل سيره ، وإذا كانت النقد في العرف الحديث أدباً وصفاً ، فهو أدب إنشائي من ناحية أخرى . وعلى الأقل من ناحية أنه يسن السبيل أمام الأدب الجديد ، ويرسم له الطريق الذي يسلكه ، ويهيئه - بزعمه - لبلوغ كماله . والنقاد - في هذا - يعمرون عن مزاج جيلهم وذوق معاصريهم وحاجة جمهورهم . ويجهد الأدباء كتاباً وشعراء ، في تحرى أذواق النقاد ، والتجانف عما يريهم . فينتضج أديهم مطبوعاً بطابع

القصة وصار يسمى نفسه دوبرتسكي !

وما هذه الخاتمة التي اختارتها لنفسها ؟ أتصرف عن دوبرتسكي فتزوج سميرنوف ؟ أتريد بذلك إغراءه وإخراجه من تودده ، أم أنها تؤثر عليه سميرنوف ؟ ومن يكون سميرنوف هذا ؟ أهو بويوف الذي تطارحه الحديث وتظاهر له الود ؟ أم هو ذلك الضابط الشاب بوليفانوف ؟ وهل تشمل سوفيا على التقريب بينه وبين أختها ليزا ؟

الأحب سوفيا هيئته فهي لذلك غير واثقة من أنها تحبه ؟ بلها من حيرة ! لقد كتب في مذكراته في الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٨٦٢ بعد قراءة القصة بيومين يقول « أيها الوجه القبيح لا تحلم بالزواج . . إنك لست أهلاً لهذا . . وإن أهليتك لمن نوع آخر وإنه لكثير ما منحته منها »

وعلى الرغم من ذلك ذهب إلى الضيعة في اليوم التالي ، ولما رجع أثبت في مذكراته قوله « لا شيء من حب كما سلف ولا من غيرة حتى ولا من ندم ، ولكنني لا أجد مثيلاً لحالتي وذلك ما يحبطها حلوة . . كانت ليلة لذيدة وكانت المواطف رقيقة سارة إن بويوف في غاية الذكاء وفي غاية الرقة » وكتب في مساء اليوم التالي يقول « لست أغار قطعاً من بويوف إذ يتحدث إلى سونيا ولا استطاع أن أسدق أن يكون ذلك حقيقة حالي . إنها كذلك تتكلم في حزن وهدوء . . أيها الأحمق إنك غير أهل لها . . لقد قضيت الليلة معهم . . لم أحم . . إنها هي أبدأ . . »

محمود الخفيف

(البيبة في السدد القادم)

نادم . لهذا يقال إن النقاد هم وجه الأدب في الأمة وهدانها . لا يجر من ربقهم إلا أديب معاصر ، ولكن لديه من المؤثرات الخاصة عدة عوامل جنحت به إلى أفق من الحرية . على أنه قد ينش فریباً بين قومه ، وقد لا يتأثرون بأدبه إلا بعد فترة من الزمن .

هذا هو الذي فهمناه في العصر الحديث من معاني النقد الأدبي . فهل ولد النقد قبل اليوم مولداً على هذا الفرار ؟ الحديث ن ذلك طويل يضطرنا إلى النظر في اتجاهات النقد في كل من مصور الأدبية النصرمة ، وهذا ما لم نقصده هنا الآن . وإنما صدنا أن نرض في إيجاز إلى الحديث عن النقد الأدبي في مصر المملوكي .

غير أنه لا ريب في أن النقد الأدبي ولد بمولد الأدب ، إذا عينا أن قارئ الأدب أو سامعيه سواء أ كانوا من الخاصة العامة مولعون أبداً بالنقد والتعليق على كل ما يقرءون أو يسمعون لو بكلمة عابرة ، أو نقدة طائفة ، أو تليقة طائفة . وهكذا نستطيع نقول إن النقد قد ولد مع الأدب الجاهلي ، غير أنه كان نقداً طرياً وفي نطاق ضيق وبين خليط من اعتبارات شتى ، ومرجعه تذوق الخاص ، وغير مقعد بقواعد ولا مرتبط بذوق عام ... ثم فضج النقد الأدبي به من التصوج بحجي الإسلام ، وأقبل الناس على سماع الأدب والنظر فيه ، وكانت بالأمويين عناية فائقة بسماع شعر قديمه وحديثه ، والتعليق عليه ، بقياس شعر بشمر ، بموازنة بيت بيت ، حتى جاء العصر العباسي ، وأقبل القوم على لدرس والتصنيف والترجمة . ولقحت القول بالترجمات ، وفاضت لمجالس بما ينشده الشعراء والرواة من محاسن الآداب العربية ، نشط النقد ، وتكون ما يشبه الذوق العام . وعنى بالدفاع عن لأساليب القرآنية وبيان ما فيها من أسرار التراكيب . فظهرت وادر العلوم البلاغية ثم اشتد أزرها وقوى أمرها وتجمعت حقائقها حتى تألفت علوماً لها موضوعاتها وأبوابها وقواعدها . صنفت كتب في النقد والموازنات اعتمدت فيما اعتمدت عليه ، على الذوق الخاص ، وهكذا انتهى عصر العباسيين بعد أن خلف ميداني النقد الأدبي والبياني ذخيرة نفيسة . ولكن النقد - على كل حال - لم يبلغ ذلك المبلغ الذي رسمنا صورته في أول

المقال ، والذي يفتأضاه منا العصر الحديث :

وبعد فما نصيب العصر المملوكي من هذا التراث ، وما الذي أضافه إليه ؟ أم ما يجبهنا من ذلك ، ذوق بدبي عام استحوذ على الأدباء والنقاد جميعاً . لم يعتمد على ما خلفه الأقدمون من قواعد في النقد البيان ، فحسب ، وإن كانت هذه القواعد من أم دعائه ومصادر إلهامه . وإن كان قد جمع كل أبواب البلاغة جديدها وقديمها تحت راية البديع .

ولقد كان للقاضي الفاضل عميد الأدباء في العصر الأيوبي ، أثر بارز في الكتابة والشعر في العصر المملوكي . لأنه ابتدع للأسلوب طريقته البديعية الخاصة التي أسامها الإكثار من المحسنات وبخاصة السجع فقد التزمه ، والجناس والطباق ، مع اللؤلؤ في مسوق التورية والاستخدام والإيمان في التشبيه والاستمارة ، والتلويح إلى الحوادث ، والتوجيه بالمصطلح العلمي ، وتضمين المأثور والاقباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، إلى غير ذلك من محسنات وسمات . وهذه طريقة في الأسلوب مبنية على ما سنده من قبله الكاتب الشهير ابن العميد (٣٠٠ هـ - ٣٦٠ هـ) وغيره من أدباء العراق . غير أن الفاضل غلا في التزام ما استحسنته وانقاد الأدباء من بعده - وبخاصة في العصر المملوكي - إلى طريقته وتمصبوا لها ، حتى تركزت في أذواقهم وفي أذواق النقاد معاً ، وأصبحت نهجاً متبعاً وقاعدة صريحة بين قواعد النقد التي يزنون بها الآثار الأدبية الجديدة منها والتقديم على حد سواء . وظهر شاعر مصر الكبير جمال الدين بن نباتة (٦٨٦ -

٧٦٨ هـ) فنهج نهج القاضي الفاضل ، وتمصب لطريقته ؛ فكان بذلك زعيماً ثانياً للطريقة الفاضلية في الشعر والكتابة . وأجمعت عناية ابن نباتة إلى إجادة التورية والتضمين ، فأبدع فيهما أيما إبداع ، وأتى منهما بالمعجب المعجاب ، وأنجحت كذلك إلى الجناس ؛ ولكن معنى بإخراجه مخرج التورية ، فأجاد وأطرب ، وأعاد وأعجب ؛ فكان بذلك وغيره ذا طريقة جديدة هي الطريقة النباتية ، وأصبح لها أتباع ومنتصبون هم جبهة عظيمة من أدباء العصر المملوكي ونقاده ، وتركزت بدورها في أذواقهم حتى صاغوا أساليبهم في قلبها ، أو اتخذوا منها قواعد جديدة للنقد وزنوا بها روازنا بين أدب وأدب ، وبين شعر وشعر . وفي مقدمة

وهو « كشف اللثام » .

هذا كله يشعرون بأن ابن حجة وغيره من نقاد العصر لم يتقيدوا بالقواعد البلاغية ولا بما وصل إليه النقد البياني من تقييد بل حكموا في كثير مما نقدوه أذواقهم وقواعد نهجهم البديهي . وهذا لا يمنعنا من الإشارة إلى أن هناك رجالاً صرفوا جهودهم إلى النقد البياني وقواعده الموروثة عن العصر السابق ، فكانوا علماء أكثر منهم أدباء . وفي رأينا أنهم لم يأتوا من وراء هذه الجهود بمجديد وما مؤلفاتهم إلا شروح أو مختصرات لمؤلفات السالفين من علماء البلاغة . وقد حظى كتاب « مفتاح العلوم » للسكاكي (٦٢٦ هـ) بتصيب كبير من هذه المؤلفات ، ومنها ما روضه الجلال القزويني ، والجلال السيوطي ، وزكريا الأنصاري ، والبهاء السبكي . غير أننا لا نبالغ إذا قلنا إن هؤلاء لم يمثلوا العصر ولا ذوقه الأدبي ولا قواعده في النقد . أما الترتيب الآخر فهم أدنى إلى هذا التمثيل وأقرب .

على أن النقد الأدبي - في الحق - كان أوسع نطاقاً مما وصفنا . وأكثر شغلاً للقوم بممارسته ؛ إذ كانت له عوامل عدة أذكت ناره وأشملت أواره . وأكثر سمارة فضلاً عن حب البديع والتسابق إلى ابتكار التوريات والتضمينات ، كانت هناك منافسات أدبية شديدة بين أدباء مصر وأدباء الشام ، ومنافسات أخرى بين شاعر وشاعر ، وكان من الناس من يتعصب لهذا أو يتحسس لذلك . وكانت هناك مباريات بين المتعاصرين من الشعراء ومساجلات ومعارضات . وكان كثير من رجوة الناس وأعيان الرؤساء يضري هذه المعارضات حتى ولو لم تكن بين المتعاصرين وكان بعض الملوك والرؤساء ذوى بصير بالشعر ومكانه . وكان بالشعراء ولوع بالتضمين فوجدوا إليه كل باب حتى تهاووا إلى السرقة عمداً أو دون عمد . كل هذه الأمور تدلنا أن النقد الأدبي قد وجد الأسباب فدق الأبواب وولج الأعتاب وعاش بين القوم في أخفض جناح وأخصب مراح .

ويضيق المقام إذا ذهبنا نمد الأمثال ونضربها . فلنكتف بالإشارة عن العبارة ، وبالتلخيص عن التصريح فنقول .
روى القزويني في خطبته أن الملك الأشرف خليلي عاد في عام ٦٩٠ هـ من الشام بمد أن فتح عكا ، فلقبته بالقاهرة رجالها في

التمسحين لها والناقدين على أساس منها ومن الطريقة الفاضلية : شهاب الدين أبو التناء محمود بن سليمان الحلبي (٧٢٥ هـ) صاحب كتاب « حسن التوسل إلى صناعة التوسل » . وتقى الدين ابن حجة الحموي (٨٣٧ هـ) صاحب كتاب « خزنة الأدب وغاية الأرب » . وهذا الكتاب أوسع نطاقاً من سابقه . وقد ألفه ابن حجة ليشرح فيه بديهيته ، وهي المنظومة التي مدح بها سيد المرسلين عليه السلام ، وضمن كل بيت من أبياتها شيئاً من البديع . وقد وازن فيه بينها وبين بديهي عزالدين الموصلي وصفي الدين الحلبي موازنة أساسها البديع ، ذا كر اسم النوع البديهي واختلاف الملء فيه ، وشواهد الأدباء عليه . وقد استطاع ابن حجة أن يخرج كثيراً عن النطاق العلمي الذي ضربه علماء البلاغة في أخريات العصر العباسي ، كالسكاكي مثلاً . واستطاع أن يجعل من كتابه هذا مرسلاً أدبياً ضافياً تالفت فيه كثير من شعر العصر الملوكي ونثره ، ومع نقده نقداً هو مزاج من النقد الأدبي الصحيح الذي أساسه الذوق ، ومن النقد البياني الموروث الذي أساسه العلم ؛ مبيناً ، بين الفينة والفينة ، مذاهب الشواذ والخارجين على الطريقة النباتية من شعراء هذا العصر . ومن بينهم صلاح الدين الصفدي الذي جُن جنوناً بالجناس وأنواعه ، كما جن به صاحب بن عباد من قبله ، وأكثر مما جن . وقد حمل ابن حجة على الصفدي وسفه ولوعه بالجناس مبيناً أن هذا المذهب يخالف مذهب ابن نباتة وتابعيه ، من العناية بالتورية واعتبارها أسمى ضروب البديع ، بل أجود أبواب البلاغة . وقد انشاق الصفدي بدافع حب الجناس إلى وضع كتاب فيه بحاسة وسماه « جنان الجناس » ملأه أمثلة من الجناس . وقد نقد ابن حجة في كتابه « خزنة الأدب » نقداً صريحاً وأورد من نظمه مدة أمثلة ، وذكر أن جمال الدين بن نباتة لما قرأ عنوان الكتاب قرأه هكذا : « جنان الجناس » وجرى بين الرجلين بسبب ذلك ما بطول شرحه . وذكر أيضاً أن من بين ناقد الصفدي الشيخ بدر الدين البشتكي الذي قال عن الصفدي بمناسبة نظمه هذا : « وإن من ذلك بيلغة من النظم الجدير أن يقدم مع صنار المتأدين » . هذا إلى أن ابن حجة قد ألف كتاباً آخر في نقد الصفدي وتصفية كتابيه « جنان الجناس » و « فض اللثام »

ما الحب إلا ما يهد له الحشا ويهد أيسره فؤاد الماشق الخ
هذا مثل من أمثلة المجالس الأدبية ومجالس النقد، وفي الطبقات
وغيره أشباه له كثيرة .

أما السرقات الأدبية فقد زاد خطرها وتطابرت شررها في
هذا العصر . ومن شعرائه من سطا على شعر غيره بدعوى التضمين
قال مجير الدين بن تميم :

أطالع كل ديوان أراه ولم أجزع عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشمري نصفه من شعر غيرى
واشتهرت سرقات ابن نباتة من علاء الدين الوداعي ، كما
اشتهرت سرقات صلاح الدين الصفدي من الجلال بن نباتة ولما
وقف ابن نباتة على سرقاته ألف في ذلك كتاباً سماه « خبز
الشعير » لأنه ما كول مذموم ونقد فيه الصفدي وأورد كثيراً
مما سرقه - وقد تبيع ابن حجة في كتبه عشرات من سرقات
الصفدي وابن نباتة وغيرهما . ومن ذلك قول ابن نباتة :
ومولع بفخاخ يهدها وشباك
قالت لي العين ماذا بصيد قلت كراكي
فقال الصفدي :

أغار على سرح الكرى عندي ما رمى إليه

كراكي غزال للبيدور يحاكي

فقلت ارجعي يا عين عن ورد حسنه

لم تنظيره كيف صاد كراكي
على أن ابن حجة هذا قد تعقبه أدب آخر هو شمس الدين
النواجي فنقد في كتاب سماه « المحجة في سرقات ابن حجة »
ولابد الدماميني كتاب آخر نقد فيه شرح الصفدي للامية
المعجم واسمه « نزول النيث »

وبعد فما تقدم شعر بمقدار عنابة أدباء هذا العصر بنقد
الأدب ، وبيان زائنه من طارفه وهذا دليل على الحيوية الأدبية
واليقظة الفكرية ، ولا يتدح في هذا اختلاف أذواقهم عن
أذواقنا فكل أهل عصر في آدابه ونقده أنجاه وفوائده وأذواق

محمد رزق سليم

مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

عظيم ، وتقدم ابن المنبري الشاعر فأنشد قصيدة قال في
سها :

والديك وقف على فبريها فكأنني بك قد نلت إليها
فتطير الأشرف من هذا البيت ونهض قائماً حائماً وهو يقول :
وجد هذا شيئاً يقوله - وى هذا البيت !

وروى تاج الدين السبكي في طبقاته عن تاج الدين المراكشي ،
: دخلت عليه مرة وهو ينشد قول ابن تقي .

إذا مالت به سنة الكرى زحزحته شيئاً وكان معانق
سنة عن أضلع تشناته كي لا ينام على وساد خافق
وقول الحكم بن عقيل :

كان لا بد من رقاد فأضلعى هاك عن وساد
على خفقاها هودواً كالطفل في هزة الهواد
وهو ومن عنده يقولون إن قول الحكم أجدر بالصواب فإنه
يناسب الحب أن يبعد حبيبه . وينشدون قول صلاح الدين
صفدي - أمتع الله ببقائه - في ذلك رداً على ابن تقي :

مدته من بمد ما زحزحته ما أنت عند ذوى الترام بعاشق
شئت قل أبعدت عنه أضالتي ليكون فعل السهام الوامق
قل فبات على اضطراب جوانحي

كالطفل مضطجماً بمهد خافق

قلت - أي السبكي - « إن ابن تقي وإن ساء لفظاً حيث
« أبعدته » فقد أحسن معنى لأنه وصف أضامه بالهفنان
لاضطراب الزائد الذي لا يستطيع الحبيب النوم معه عليها
- مصلحته على مصلحته وترك ما يريد لما يريد ، وأبده عما
قه ، ولو قال « أبعدت عنه أضلماً تشناته » لأحسن لفظاً كما
- من معنى . وأما الحكم فإنه وصف خفقانه بالهدوء ، وهو
يقان يسير يشبه اضطراب سرير الطفل . وهكذا نقص ، فوقع
راع في ذلك . وأرسلوا إلى القاضي شهاب الدين أحمد بن فضل
حري - رحمه الله - سورة سؤال عن الرجلين « ابن تقي »
« الحكم » أيهما المديب . فكتب : قول ابن تقي عليه ما أخذ
كفنه قول الحب الصادق .

كفنيه في صدق المحبة قوله كي لا ينام على وساد خافق